المسألة الاجتماعية في مصر والشرق

بيني وبين الأستاذين
فكري أباظة وتوفيق الحكيم
للدكتور زكي مبارك

كنت توهمت أن طول عهدي بالصحافة السياسية والأدبية جعلني أعرف الناس بأساليب الجدال ، وأقدرهم على الفهم لمذاهب الصحفيين في إقرار الحقائق وإزهاق الأباطيل

وكنت توهمت أيضاً أن الصحافة تهدي الجمهور ، وإن كان الظاهر يلوح بأنها تستهديه ، فقد كان مفهوماً عندي وعند أكثر الناس أن الصحافة قوة نورانية تبدد الظلمات ، وتأخذ بيد المجتمع إلى درجات التقدم والارتقاء

كنتُ وكنت ، إلى أن تلقيت عن الأستاذ فكري أباظة درساً لن أنساه ، فما هو ذلك الدرس ؟

كان الأستاذ توفيق الحكيم نشر مقالاً في مجلة المصور عن الإصلاح الاجتماعي ، وقد صرّح في ذلك المقال بأن المجتمع المصري سيظل في انحطاط ما دام في مصر جماعة من الأغنياء يستأثرون بمصادر الخيرات ؛ ثم قرّر أنه لا نجاة لمصر إلا يوم تصبح « المسألة الاجتماعية » في قوة « المسألة السياسية » ، فتسبب إسقاط الوزارات ، وتقدّم وتؤخر في مراكز الأحزاب

وقد رأيت مقال الأستاذ توفيق الحكيم ضرباً من الحديث المعاد ؛ فقد مضت أجيال والناس يتحدثون عن « اليوم الموعود » : اليوم الذي توزّع فيه أموال الأغنياء على الفقراء . وانتظارُنا لذلك اليوم سيطول ، فمن الخير أن نفكر في إسعاد الفقراء بطريقة عملية ، فندرس أسباب الفقر لنقتلع جذوره من الأساس . ثم رأيت أيضاً أن الكلام عن « المسألة الاجتماعية » ليس إلا « بضاعة أجنبية » فهو منقول عن جماعة من الكتّاب الأوربيين والأمريكان ، وما يقال في الغرب لا يصلُح دائماً لأهل الشرق

وسارعتُ فأرسلت مقالاً إلى المصور في تقرير هذه المعاني . وفي العدد الذي تلا ظهور المقال رأيت الأستاذ فكري أباظة يتبرأ مني ، ويعلن أنه تلقى مئات الرسائل في تفنيد ما رأيت ، وأنه سيتولى الرد عليّ في العدد المقبل ؛ فكان رده تحريضاً للجمهور على الكاتب الذي توهمّ أن الأستاذ فكري أباظه رجلٌ يحترم حرية الرأي ؛ فرددت عليه بمقال أعلنت فيه أن « الفقر مرض ، ولكل مرض أسباب » ، فعاد فقرّر أن الرسائل التي وردت في الرد عليّ بلغت الألف عدداً . ثم وجّه إليّ كلمات لا يليق صدورها عن زميل كنت أراه غاية الغايات في رعاية أقدار الزملاء

واليوم ، ماذا أريد أن أصنع ؟ ؟

أريد أن أحرر الأستاذ فكري أباظة من الاستعباد للرسائل التي تُمدّ بالمئات أو بالألوف ، فقد يخاف على « المصور » من غضبات القراء ، وأنا أحب أن تدوم عليه وعلى مجلة « المصور » نعمة العافية ، فهو صديق وهي صديق ، وإن لقيت منه ومنها ما لقيت ! !

أريد أن أختبر قدرة الأستاذ فكري أباظة على الأبحاث التي تحتاج إلى تعمّق واستقصاء ؛ فقد رأيته يتنقّل تنقّل الطير من فنَن إلى أفنان ، ورأيته لا يصبر على « الطعام الواحد » غير أوقات تُمدّ بالآحاد ، وهو يدرك مَرَدّ هذه الإشارة في الأدب والتاريخ

أما الأستاذ توفيق الحكيم فقد خرج بالصمت عن لا ونعم ، ولكني سأعرف كيف أسوقه برفق أو بعنف إلى شرح مذهبه في الإصلاح الاجتماعي ، إن كان في اعتناق ذلك المذهب من المؤمنين ؛ فأنا أخشى عليه عواقب التودد إلى القراء بأساليب يغلب عليها الترفق المصنوع

وأنا لا أخاف على « الرسالة » كما خاف الأستاذ فكري أباظة على « المصور » ، فالقراء لن ينصرفوا أبداً عن مجلة تواجههم بالصدق في تشريح الآراء والأهواء[1] . ولو كنت أعرف أن مجلة المصور ستخذلني لطويت عنها رأيي ، وتركتها تتودد إلى القراء ، كما تشاء !

أخذ الأستاذ فكري أباظة يبدي ويعيد في التوجع لمصاير الصناع والعمال والفلاحين ، كأنه يتوهم أن التوجع شفاء من كل داء !

نحن لا نريد أن نقيم الملاطم والمناحات على ما صرنا إليه ، وإنما نريد أن ندرس جميع الظواهر الاجتماعية بصدق وإخلاص ، وإن غضب علينا بعض من لا يفقهون

(١) رأي الرسالة في الفقر والفقراء معروف

فهل يخرج الأستاذ فكرى أباظة على مذهبه المألوف فى تقييد الخواطر اليومية ليلقانى على صفحات الرسالة وقد استعد لنضال شريف سيعود على المجتمع بالنفع الجزيل ؟

لقد تهانى الناصحون عن هذا الموضوع الشائك ، وقالوا إن فى مصر تياراً من الحقد على الأغنياء ، وإن من العقل أن أساير ذلك التيار ، كما يصنع الأستاذ فكرى أباظة والأستاذ توفيق الحكيم

وأقول إنى أقاوم ذلك التيار لنفعة وطنى ، فالوطن الغالى يناشد أبناءه جميعاً أن يعيشوا فى تعاون وتساند ، وهو يدعو الفقراء إلى الفرح بسعادة الأغنياء ، كما يدعو الأغنياء إلى البرّ بالفقراء . ولن يعطف الله على الفقير إلا يوم يفرح بحلول النعمة على جاره المسعود ، والفقير الذى يفرح بفرح جاره الغنى هو الصورة الصحيحة للأدب الذى دعانا إليه الأنبياء

أما بعد فما هو أصل الخلاف ؟ يقول الأستاذ فكرى أباظة : إنى حملت على الفلاحين والفقراء . لا ، يا صديقى ، وإنما كان رأيى أن الفقر الذى يعانيه بعض الفلاحين والعمال والصناع له أسباب ، لأن الفقر فى الجيب كالعلة فى الجسم ، ولكل نتيجة مقدمات

فما وجه الخطأ فى هذا القول ؟ وهل من الصحيح أن جميع الفلاحين والعمال والصناع منزهون عن الأغلاط ؟

إن كان ذلك فكيف يصيبهم الفقر وهو لا يصيب غير من حُرموا قوة الأخلاق الاجتماعية والمعاشية ؟

وكيف اتفق لجميع المصلحين أن يضعوا آداباً لطلب الرزق ، وهى آداب موجهة إلى الفقراء ؟

وكيف يحرّم علينا أن ندعو فقراءنا إلى التخلق بالأخلاق الاجتماعية والمعاشية ، وهى دعوة تلقيناها عن أسلافنا الأمجاد ؟

وأعجم على الأستاذ فكرى أباظه فأوجه إليه هذا السؤال :

إذا صح أن جميع الفلاحين والعمال والصناع على جانب عظيم من الأخلاق الاجتماعية والمعاشية فكيف جاز أن يعيشوا فقراء ونحن نعرف أن السلامة من الآفات الأخلاقية تضمن السلامة من آفات البؤس ؟

ثم أوجه إليه سؤالاً آخر فأقول :

إذا صح أن جميع الفقراء فى غاية من الأمانة والصدق فكيف جاز أن يقوم بينهم وبين الأغنياء حجاز سميك لا تنفذ منه بوارق التعاون إلا فى أندر الأحايين ؟

ثم أوجه إليه سؤالاً ثالثاً فأقول :

إذا صح أن الناس جميعاً بخير من الوجهة الأخلاقية فلأىّ غرض تنشأ الجرائد والمجلات ؟ ولأية غاية تقام حدود الشرائع والقوانين ؟

إن كان الأستاذ فكرى أباظة راضياً عن أحوال الصناع والعمال والفلاحين فى الدنيا أقوام يرون غير الذى يراه ، ومن حق أولئك الأقوام أن يعلنوا آراءهم بلا تخوف ولا تهيب ، لينقلوا المجتمع من حال إلى أحوال ، وليخطوا فى كتاب الإصلاح الاجتماعى صفحة جديدة يحفظها التاريخ

ثم ماذا ؟ ثم يسألنى الأستاذ فكرى أباظة عن أهلى فى الريف ، وهو يؤكد أن أقدامهم الممزقة وأياديهم الخشنة وصدورهم المحروقة ووجوههم اللوحة تشهد بأنهم أشقى سكان العالم وأعنفهم عملاً وكداً وكدحاً

وأقول إن أهلى ليسوا كذلك ، مع الأسف الموجع ؛ فلو كنت أعرف أن لأهلى فى الريف أقداماً ممزقة ، ووجوهاً ملوحة ، لطابت نفسى ، وأيقنت أن الريف لا يزال بخير ، وإنما أعرف أن أهلى وأهلك تسامعوا بأن القاهرة نشأ فيها رجال يبكون أو يتباكون لشقاء الفلاح ، ويزعمون أن الفلاح الأوربى أو الأمريكى يعيش عيش السعداء ، فلا يعانى صحبة الفأس والمحراث إلا وفى يده جريدة يطالع فيها أخبار الصباح أو أخبار المساء ! !

ليت أهلى فى الريف حفظوا عهد جدّى ، فقد كان جدى رحمه الله يحدّث أبناءه بأن الحقل يفرح بصاحبه حين يراه ، وهم اليوم لا يرون حقولهم إلا فى الحين بعد الحين ، وأكثرهم يخجل من أن يسحب بقرة أو يركب جملاً ! وكيف يسحبون البقرات أو يركبون الجمال وهم من أبناء الجيل الجديد ، الجيل الذى ينشىء فى سنتريس أكثر من سبع قهوات مع أن أهلها لا يجاوزون عشرة آلاف ، ومع أن الآباء والأجداد فى سنتريس لم يكونوا يشربون غير الماء القراح

أريد أن أرى بين أهلى رجلاً ممزق القدمين من آثار الكدح الموصول لأتقرب إلى الله بالثناء عليه ، ولأنشر عنه مقالاً فى مجلة مصرية أو شامية أو عراقية

أنا لم أفكر فى « إحداث ضجة » تقع كارثتها فوق رأسى ، كما يهددنى الأستاذ فكرى أباظة ، وإنما أفكر فى مصاير قوى ،

وأنا بشهادة خصومى أصدق الناس فى الوطنية ، ولله الحمد على هذا الميراث النفيس

وأعجم على الأستاذ فكرى أباظه مرة رابعة فأوجه إليه هذا السؤال :

هل تعرف ، أيها السيد ، كيف حُرِم أبناء الريف نعمة الشاعرية ؟

ولكن ما هذه الشاعرية ؟

إليك أسوق الجواب :

كان جميع أبناء الريف يتعلقون بمزارعهم إلى حد الفتون ، فكان الرجل منهم يراعى مزروعاته بشغف وشوق ، ويكاد يعرف كيف تطول الورقة الخضراء من ساعة إلى ساعة ، بل من دقيقة إلى دقيقة ، بل من لحة إلى لحة ؛ وكان الرجل منهم يعطف على مواشيه كما يعطف على أبنائه الأعزاء ؛ وكان الفلاح يعرف ملامح كل شجرة ، ويأنس بكل نبتة ، ويكاد ينظم قصيدة رثاء حين يرى سنبلة قصمتها الرياح

فأين أهلونا فى الريف من هذه المعانى بعد أن سمعوا بقصة المدن الحديث ؟

أين أهل الريف من هذه المعانى ، وما نشأ منهم ناشئ إلا وهو يرجو الرحيل إلى القاهرة ، ليجد وظيفة تغنيه عن الأنس بمزارع القطن والقمح والفول ؟

إن أسلافنا الفدماء عبدوا مصادر الخيرات فى بلادهم إلى الحد الذى سمح بأن يروا معنى الألوهية فى البقرة الحلوب ، وإلى الحد الذى سمح بأن يعتقدوا أن النيل إله معبود

فأين نحن من أولئك الأسلاف ؟ وأين فينا من يتشرف بأنه فلاح وابن فلاح ؟

لقد توهم الأستاذ فكرى أباظة أننى من « سادة الصالونات الأرستقراطية التى تعيش فى دنيا الجاتو والجيلاتين والجامبون والمارون جلاسيه » . فليعرف أن هذه الألفاظ تحتاج إلى شرح يقربها إلى ذهنى بعض التقريب ، لأن بيتى لا يعرف هذه الأصناف ، ولأن من يتفضلون بدعوتى إلى بعض الولائم يطوونها عنى ، ولأنى نسيتها نسياناً تاماً بعد فراق باريس ، إن كنت ذقت فى باريس غير إغذاء العينين تحت ضوء السراج

ما ذا أريد أن أقول ؟

أنا أريد القول بأن دنيا الناس فى مصر قد أصيبت بالانحراف وإلا فكيف جاز أن تكون دعوتى إلى إصلاح أخلاق الفقراء كارثة لا تقع إلا فوق رأسى ؟ !

وكيف يجوز أن يكون الأستاذ فكرى أباظة من خصومى ، وقد اكتوت يداه بالانحراف الاجتماعى كما اكتوت يداى ؟

بلادنا مهددة بالشقاء ، بسبب سوء الفهم لعناصر النظام الاجتماعى ، فما الذى يمنع من أن نتعاون على الإصلاح المنشود ؟

ومتى ندرك أن تمزيق أقدام الفلاحين هو شارة من شارات التشريف ، وليس بابا من أبواب الرثاء ؟

من حق الأستاذ فكرى أباظة أن يتوجع لمصاير الفقراء من العمال والصناع والفلاحين ، أما أنا فلن أتوجع لمصاير أولئك ولا هؤلاء ، لأنى أومن بأن الله خلق منافع الوجود لجميع الناس ثم دعاهم إلى التسابق بقوة العزيمة والأمانة والصدق والإخلاص فربح من ربح وخسر من خسر ، كما كان يعبر أستاذنا الشيخ مصطفى المراغى

الله وحده هو الذى يعلم سريرتى فى إثارة هذه المشكلة الاجتماعية ، ومنه وحده أستمد العون على من يعادوننى ظالمين آثمين . وإلى اللقاء بعد أن أسمع حجج المناظر المفضال

زكى مبارك

ابن المقفع

تأليف الأستاذ عبد اللطيف حمزه المدرس بكلية الآداب

تصدير الأستاذ أحمد أمين بك عميد كلية الآداب

كتاب يهم كل أديب هو ترجمة وافية لابن المقفع ودراسة تحليلية لشخصيته العظيمة وبحث دقيق فى كل ما يتصل بهذا العبقرى الفذ أو يدور حوله ، أخرجه المؤلف على أحدث الأساليب العلمية بعد أن صاحب ابن المقفع وعاش معه زمناً طويلا واطلع على كل ما كتب عنه فى قرابة المائة مصدر من المصادر الشرقية والأوربية وتناول فيه بالبحث : حياة ابن المقفع وتربيته ولقبه ، أسباب اضطهاده ومصرعه ، أخلاقه ومكانته بين معاصريه ، زندقته وأسبابها ، أسلوبه وكتبه ، تأثيره فى العقل الشرقى ، الحركة الفكرية فى البصرة (العراق) وتطورها ونموها وأساقفتها ، الصراع بين المذاهب الدينية فيها . أثر الثقافة الفارسية فى الثقافة الاسلامية الخ . . .

والكتاب فى ٣٥٠ صفحة فاخر الطبع وثمنه ١٠ قروش صاغ والبريد ٣ قروش

ويطلب من مكتبة الجامعة بشارع محمد على بمصر